

الحافظ مسلم وعنايته بالحديث

ثم إن بعد البخاري -رحمه الله- من الذين كتبوا في الحديث مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح؛ صحيح مسلم. كان أيضا من الحفاظ. أُلّف كتابه الذي هو صحيح مسلم وأبتدأه بعد المقدمة بكتاب الإيمان، ولكنه لم يذكر تراجم كما فعل البخاري وأيضا ذكر في كتاب الإيمان كل شيء يتعلق بالعقيدة؛ فافتتح كتاب الإيمان بحديث جبريل المشهور، الذي رواه عمر -رضي الله عنه- وكذلك بعده بحديث أبي هريرة الذي رواه في نزول جبريل وسؤال النبي -صلى الله عليه وسلم-. ثم ذكر في كتاب الإيمان الأحاديث التي يحتج بها المرجئة؛ الأحاديث التي في الشهادة، وأن { من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه دخل الجنة } والأحاديث التي في الرجاء، والأحاديث التي يحتج بها الخوارج والمعتزلة التي فيها وعيد شديد؛ التي فيها الوعيد بالنار لمن فعل معصية أو نفي الإيمان أو نحو ذلك؛ مثل حديث: { لا يدخل الجنة نام } من أحاديث الوعيد، وكذلك الأحاديث التي فيها نفي الإيمان أو نفي الابتاع؛ مثل قوله: "ليس منا من فعل كذا"، { ليس منا من لم يستطع فيلسانه، فإن لم يستطع فيقلبه، وذلك أضعف الإيمان } وغير ذلك. وذكر أيضا في كتاب الإيمان الأحاديث التي تتعلق بالأمور الغيبية ووجوب الإيمان بها وصفة الشفاعة؛ أحاديث الشفاعة؛ لأن الخوارج ينكرونها، وأحاديث إخراج المؤمنين من النار، وذكر تفاوت الإيمان في قلوبهم، وأنه ما بين ضعيف وقوي؛ حتى قال في الحديث: { أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه مثقال دينار من إيمان } ثم قال: { مثقال شعيرة من إيمان، مثقال ذرة، مثقال حبة خردل } مما يدل على أن أهل الإيمان يتفاوتون بقوة الإيمان في الأحاديث، وغير ذلك من القرآن يضعف في القلوب. استدل بحديث: { من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسهه، فإن لم يستطع فليقلبه، وذلك أضعف الإيمان } فجعل الإيمان يضعف. يكون منه قوي ومنه ضعيف، وهذه الأحاديث وغيرها تدخل في الإيمان، وتدخل أيضا في العقيدة؛ فجعل كتاب الإيمان عامًّا لما يتعلق بالرد على المبتدعة؛ الرد على المرجئة، والرد على الوعيدية كالخوارج والمعتزلة، والرد على المعتزلة أيضا فيما يتعلق بالصفات، والرد على الفسقة ونحوهم، فكتابه الذي قدمه كتاب مفيد. يعني: في أول صحيحه يدل على غنايته -رحمه الله- بالأحاديث. العلماء الذين ألفوا في الإيمان كذلك من الذين كتبوا في الإيمان الإمام ابن منده واسمه محمد بن إسحاق وله مؤلفات؛ منها كتاب في التوحيد صوّمته الأعمال التي يجب العمل بها، وصوّمته أيضا توحيد الأسماء والصفات، ومنها كتاب في الإيمان. طبع محققا في ثلاثة مجلدات، وإن كانت مجلدات ليست كبيرة. كله أحاديث. يروي تلك الأحاديث من كتب المتقدمين قبله أو مما فتح الله تعالى عليه. فهذا غاية السلف -رحمهم الله- بالإيمان، وهكذا أيضا من بعدهم. ومن أشهر من كتب بعدهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فإنه أُلّف كتاب الإيمان، ويقال له: كتاب الإيمان الكبير، وله كتاب الإيمان المتوسط، وكتاب الإيمان الصغير؛ إلا أن الصغير ذكرنا أنه اختصار لبعض تأمليه. فهذا كتاب الإيمان الكبير طبع مفردا عدة طبعات، وطبع أيضا مع المجموع؛ في المجلد السابع من مجموع الفتاوى، وطبع له أيضا في ذلك المجلد. طبع له أيضا رسائل تتعلق بالإيمان، وتكلم أيضا على الإيمان في رسالته التي هي العقيدة الواسطية. وكل ذلك دليل على أنهم رأوا أن المرجئة تمكن قولهم؛ حيث إنهم يسهلون في أمر المعاصي فخافوا أن الناس يتخدعون بقولهم، فأرادوا أن يبينوا الأدلة في أن الأعمال من مسمى الإيمان، وأن المعاصي تضر أصحابها، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أن كثيرا من الذين معهم إيمان يدخلون النار بسبب المعاصي التي اقترفوها، فبعضهم يبقى فيها مائة سنة أو مئتا أو سنوات أو نحو ذلك؛ حتى يحترقوا ويصبحوا كأنهم حمم. ثم بعد ذلك يأن الله بالشفاعة لهم؛ لأن عندهم إيمان ولأن عندهم شهادة، ولأن عندهم صلاة، فيأمر الله تعالى بإخراجهم فيعرفون بأثار السجود. حرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثار السجود. وذلك دليل على أنهم دخلوا النار مع كونهم يصلون، ولكن ما أحرق النار أعضاء السجود السبعة؛ الجهة مع الألف والكفين والركبتين وأطراف القدمين، فيخرجون وقد امتحنوا أو قد افترقوا، ويدخلون الجنة، ولكنهم يلقون في نهر يسمى نهر الحياة -أو نهر الحياة- يلقون فيه فينبئون كما نتبت الجثة في حصيل السيل. ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية ما يلي الظل منها أبيض وما يلي الشمس منها أخضر؟ فينبئون إلى أن نتبت أجسامهم، ثم بعد ذلك يدخلون منازلهم ومسكنهم في الجنة، ولكن دخولهم النار وتعذيبهم فيها مدة طويلة أو قصيرة يدل على أنهم استحقوا ذلك بأنواع من المعاصي والبدع ونحوها. العقيدة الطحاوية وشروحها ثم إن فقهاء الحنفية -رحمهم الله- تشددوا في التمسك بمعتقدهم، من حملتهم الطحاوي صاحب العقيدة التي تسمى "الطحاوية"، فإنه تمسك فيها بمعتقدهم، ولما ذكر الإيمان قال: "وأهله في أصله سواء". جعله هو المعرفة والتصديق، وأخرج الأعمال من مسمى الإيمان، ولما اشتهرت هذه العقيدة شرحها كثير من الحنفية، ولما شرحوها؛ شرحوها على معتقدهم، وسلكوا فيها مسلك المعتزلة في نفي الصفات، وفي أن الإيمان لا تدخل فيه الأعمال. ولكن وفق الله لشرحها عالم من أهل السنة؛ ولكنه حفي على معتقد مذهب الحنفية، وهو ابن أبي العز الأدرعي أُنقذه الله من الاعتزال ومن البدع بسبب أنه قرأ على ابن كثير؛ تتلمذ على ابن كثير العالم المشهور صاحب التفسير، وابن كثير شافعي المذهب، ولكنه تتلمذ على ابن تيمية وأخذ عنه عقيدة أهل السنة، فانتفع بمصاحبه وبالتلمذة عليه؛ فصار قوله في العقيدة كقول أهل السنة، فتأثر به تلميذه ابن أبي العز ثم إن ابن أبي العز شرح الطحاوية، ولما شرحها؛ شرحها على معتقد أهل السنة، وكان ينقل من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ومن كتب ابن القيم ولكنه لا يجروا على ذكر أسمائهما مخافة الأيقيل شرحه؛ لأن الحنفية يعرضون ابن تيمية لكونه خالفهم في العقيدة، وكذلك ابن القيم وله معهم قصص طويلة. لما أتى ابن أبي العز على تعريف الإيمان، وأن أهله في أصله سواء في كلام... الطحاوي حاول أن يقرب معتقدهم إلى معتقد أهل السنة، وقال: إن الخلاف لفظي، وإنما إذا قلنا: إن الإيمان هو الاعتقاد فإننا نريد الاعتقاد الجازم الذي يحمل على العمل؛ ليس الاعتقاد الضعيف الذي لا يحمل على العمل، ولا يكون له تأثير فيمن اعتقده. لا شك أن هذا محاولة، وسمعت شيخنا عبد الله بن حميد -رحمه الله- تكلم مرة على الإيمان، ثم ذكر قول ابن أبي العز يقول: إنه حاول أن يقرب معتقد الحنفية ولم يعلل شيئا؛ وذلك لأن الأدلة ظاهرة في أن الأعمال من مسمى الإيمان؛ الأدلة، وذكر منها آيات منها قول الله تعالى: { إِمَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ } هذا فعل، { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ يَأْتُوا اللَّهَ بِأَفْئَاتٍ } هذا دليل على أن الإيمان يزيد، { وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } هذا أيضا فعل قلب، { الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } فجعل النفقة والصلاة ونحوها من الإيمان، { أَوَّلَيْكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } فالنفقات من الإيمان، والصلاة من الإيمان، والتوكل من الإيمان. والإيمان يزيد، وكل شيء يقبل الزيادة فإنه يقبل النقص. واستدل أيضا بالآية التي في سورة السجدة، والتي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يداوم على قراءتها في صلاة الفجر يوم الجمعة. كان يداوم على قراءة سورة السجدة "الم سجدة" وهل أتى على الإنسان؛ كل سورة في ركعة. فيها قول الله تعالى: { إِمَّا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حُزُّوا وَسَخَّوْا وَحَدَّثُوا بِأَفْئَاتِهِمْ خُوفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } فذكر ستة أعمال جعلها صفات للمؤمن. إنما المؤمن حقا هو الذي يكون على هذه الأعمال. يعني: { إِمَّا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا } إنما يكون المؤمن بآيات الله الذي يكون هكذا. لا شك أن هذا أيضا دليل صريح في أن الأعمال من مسمى الإيمان. المرجئة يسهلون أمر المعاصي وعلى ذلك فقول ابن أبي العز -رحمه الله- إن الخلاف بين أهل السنة وبين المرجئة خلاف لفظي ليس كذلك، ليس على إطلاقه؛ بل إنه خلاف معنوي؛ وذلك لأنهم إذا أخرجوا الأعمال من مسمى الإيمان فإلهم يغفلون جانب الرجاء؛ ولأجل ذلك سمو المرجئة: قيل: سموا مرجئة؛ لأنهم غلبوا جانب الرجاء. يعني: المرجئة يغفلون الرجاء على الخوف، ويقولون: (لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا يضر مع الشرك عمل) يقولون: كما أن المشركين لو صلوا، وتصدقوا وحجوا ما نفعهم، فكذلك يقولون: المؤمنون الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان لو زنا أو سرقوا أو قذفوا، أو قتلوا أو سكرنا ما يضرهم ذلك؛ وهذا خطأ. إن هذه الأعمال قد ورد فيها وعيد؛ وعيد شديد، فلا يجوز التهاون في أمر المعاصي والتسهيل فيها؛ لأنهم وإن كانوا من أهل التوحيد، ومن أهل لا إله إلا الله ولم يشركوا بالله، فإنهم وإن كان مآلهم إلى الخروج من النار ودخول الجنة، فإنهم تضرهم تلك المعاصي، يدخلون بسببها النار؛ سواء طالت مدتهم أو قصرت، وقد يطلق على بعضهم الخلود فيها، مثل قتل الإنسان نفسه. في صحيح مسلم قول النبي -صلى الله عليه وسلم- { من وجأ نفسه بحديدة - يعني: طعن نفسه بحديدة - فقتل نفسه، فحديده في يده يحا به نفسه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسى سما فقتل نفسه - يعني: التهم السم وقتل نفسه - فسمه في يده يتحسا في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من شاهق - يعني: من رأس جبل - فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا } . وهكذا أيضا تودع الله تعالى القائل { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَصَبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } توعده بهذا الوعيد الشديد لما قتل مؤمنا، فذلك بلا شك دليل على أن هذه المعاصي يعاقب عليها ويتوعد عليها، ولو كان الخلود يراد به طول الإقامة. الخلود والتأبيد يراد بها المكث الطويل. يعني: يمكن أن بعضهم يمكث في النار مائة سنة أو مائتين أو ألف سنة. أليس ذلك عذاب شديد؟ أليس هذا العذاب؟ يعذب كما يعذب الكفار الذين يخلدون فيها، والذين قال الله عنهم: { كَلِمَاتٌ تَصِبُّ حُلُودَهُمْ بَدَأْتَهُمْ حُلُودًا غَيْرَهَا } ويقول: { كَلِمَاتٌ حَبِطَ رِذَائُهُمْ سَعِيرًا } . إذن فالخلاف معنوي بيننا وبين المرجئة الذين يسهلون في أمر المعاصي، وقد كثر المرجئة في هذه الأزمنة فقالوا مثلا: إن ترك الصلاة لا يضر، وجعلوه من جملة المعاصي التي لا يدخل أهلها النار ولا يصلون إلى الكفر، وكثير منهم يقولون: إذا كنت من أهل الإيمان وإذا كنت من أهل الشهادة فلا يضر ما عملت، فيتعلقون بحديث: { إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك الكفر، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- { أسعد الناس شفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه } والجواب أن كلمة (لا إله إلا الله) قيدت باليقين والتفاني. ذكر العلماء ألبسة شروط. نطقها بعضهم بقوله: علم يقين وإخلاص وصدق مع محبة وانقياد والقبول لها وإذا اجتمعت هذه الشروط السبعة فلا بد أنه يتبعها العمل؛ فقولها باللسان ولكن عدم العلم وعدم الانقياد، وعدم العمل وعدم اليقين وعدم القبول لا تفيد معه، ولذلك جاءت الأحاديث (... خالصا من قلبه)؛ لأنه إذا قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه. امتلا قلبه بهذه الكلمة، وعرف أن الله تعالى هو الإله؛ الإله الحق، وعظم قدر ربه في قلبه، وبذلك يستعظم المعصية؛ يستعظم أن يعصي ربه ولو بمعصية صغيرة، ولهذا كانوا يحذرون عن صفات الذنوب..... هؤلا المرجئة الذين يسهلون في أمر المعاصي فحذرهم ونقول لهم: تأملوا الأحاديث التي في الوعيد. أليس النبي صلى الله عليه وسلم لعن في الخمر عشرة؛ لعن الخمر، وشاربها، وساقبها، وبائعها، ومشتريها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل منها؟؛ ولعن في الربا خمسة؛ لعن أكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه؛ لأنهم تعاونوا عليه فدخلوا في هذا الوعيد؛ وكذلك أيضا وردت الآية في الوعيد على كثير من المعاصي. تودع الله مثلا كل مال اليتيم في قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ طُلُقًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } مع أنه أكل لمال؛ مع أن ذلك الأكل قد يكون بصلي، ويصوم ويصدق ويجاهد، ولكن لما أنه ظلم تودع الله تعالى بالعداب. وهكذا أيضا تودع الذين يذوقون المؤمنين بوعيد شديد في قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْبَاقِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ بِبَهْمِ الْحَقِّ وَيَكَلِّمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ } فأخبر بأنهم إذا قالوا: فلانة زنت، وهي محصنة عفيفة، أو فلان زنى أو زان، وهم كاذبون عليه فإنه يعاقبهم بهذه العقوبة. أليس ذلك دليلا على أن المعاصي لا يتهاون بها، وأن الذين يتهاونون بها ويسمون مرجئة أنهم على خطر من العذاب؟! فلا يجوز للمسلم أن يتهاون بالعذاب، وعليه أن يجدد أمر العقيدة، وأن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان. قد ذكر الله تعالى زيادته في آيات كثيرة كقوله تعالى: { قَرَأْتَهُمْ إِمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } وقوله: { أَنْكُم رَأَيْتُمْ هَٰذِهِ إِمَانًا قَالًا الَّذِينَ آمَنُوا قَرَأْتَهُمْ إِمَانًا } ونحو ذلك من الآيات فالإيمان يزيد وينقص فالكلمة التي هي ذكر الله تعالى أو أمر بالمعروف أو نهي عن منكر أو تسبيح، أو تحميد أو قراءة آيات من القرآن يزيد بها إيمانك، والكلمة التي هي سب أو شتم أو لعن أو قذف أو غيبة أو نيمية ينقص بها إيمانك، ونظرك مثلا في المصحف أو في كتب العلم، أو نظرك في آيات الله للاعتبار يزيد به إيمانك، ونظرك إلى الصور الخليعة مثلا وإلى النساء المتكشفات وما أشبه ذلك ينقص به إيمانك، وسماعك للذكر وسماعك للعلم، وسماعك للفوائد يزيد به إيمانك، وسماعك للغناء وللطرب وللمزامير والكلام الفبيح ينقص به إيمانك. ونفتك في وجوه الخير، وصدقتك على المساكين ونحوهم وفي سبيل الله يزيد بها إيمانك، ونفتك في شراء آلات الملاهي أو في إفساد الأموال وشراء المحرمات وما أشبه ذلك ينقص بذلك إيمانك، وخطواتك إلى المساجد تتبني بذلك الصلاة والعلم والفائدة يزيد بها إيمانك، وخطواتك إلى أماكن اللعب وأماكن الفواحش وأماكن الرقص والغناء وما أشبه ذلك ينقص بها إيمانك، فحاول أن تفعل الأشياء التي يزيد بها إيمانك، وتجنب ما ينقص إيمانك. ذلك لأنه إذا تعاطى ما ينقص إيمانه دائما أو شك أن ينقص الإيمان حتى لا يبقى منه شيء، وإذا اضمحل الإيمان خلفه الكفر -والعباد بالله-.